

حروف العطف والجر في القرآن الكريم

وأثرها في الإعجاز

**Conjunctions and Prepositions in the Holy
Quran**

And their Miraculous Effect

د. عبد الله علي عبد الله الهتاري

Dr. Abdullah Ali Abdullah Alhetari

جامعة قطر / كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Qatar University \ College of Sharia and Islamic Studies

E-mail: a.alhetari@qu.edu.qa

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، البيان، النظم، البلاغة، التركيب.

Keywords: letters, miracles, statement, meanings.



الملخص

يتناول هذا البحث موضوع حروف العطف والجر في القرآن الكريم، من خلال استعمال النظم القرآني المعجز لهذه الحروف المختلفة في سياقات النظم، لإبراز دلائل الإعجاز اللغوي في هذا الاستعمال المحكم؛ واقتصر البحث على نماذج من حروف العطف والجر، لكثرتها التي لا يتسع لتناولها وتحليلها مثل هذا البحث.

واستعمال النص القرآني المعجز لها، يمثل مظهراً من مظاهر الإعجاز البياني فيه، وهو جزء يسير من ضمن موضوعات الإعجاز البياني المختلفة؛ منطلقاً في ذلك من قصدية القرآن الكريم في الاستعمال الدقيق لكل حرف في سياقه الذي يقتضيه، إذ يستحيل أن يحل محل هذا الحرف حرف آخر يؤدي معناه العميق الذي قصده القرآن.

Abstract

This research deals with the subject of conjunctions and prepositions in the Qur'an through the use of the miraculous Qur'anic systems of these different letters in the contexts of systems, to highlight the evidence of the linguistic miracle in this precise use. The research is limited to examples of conjunctions and prepositions, due to their abundance, which cannot be dealt with and analyzed in such research.

And the use of the miraculous Quranic text of it, represents a manifestation of the manifest miracle in it, and it is a small part among the various topics of the manifest miracle. Starting from the intent of the Holy Qur'an in the precise use of each letter in the context it requires, as it is impossible to replace this letter with another letter that performs its deep meaning intended by the Qur'an

المقدمة:

تكمن أهمية هذا البحث وسبب اختياره؛ لما يمثله استعمال البيان القرآني لحروف العطف والجر في سياقاته المتنوعة من أهمية بالغة في الإعجاز في دقة اختيار النظم القرآني لهذه الحروف، وما ترد فيه هذه الحروف في سياقات مخالفة للمتوقع؛ مما يثير الدهشة، بخروجها عن المألوف في استعمال اللغة؛ نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ طه: ٥٧-٦٠

فإن المألوف المعتاد في معهود اللسان العربي، التفرقة في الاستعمال بين حروف العطف من حيث السياق اللغوي لها، فتد الواو لمطلق الجمع، وتختص عنها الفاء بالترتيب مع التعقيب، وتختلف عنها "ثم" بالترتيب مع تراخ في الزمن ومهلة، و بناء على ذلك فقد كان المتوقع بمنطق اللغة أن يرد السياق البياني لنظم الآية على نحو (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) لأن الجمع يحتاج إلى مهلة و تراخ في الزمن ، من إرسال الرسل وتبليغ الناس في القرى والمدن بالموعد المضروب، وجمع السحرة من جميع المدائن ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَجَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ الأعراف 111-112، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٢﴾﴾ الشعراء: ٣٦؛ فإذا حصل ذلك؛ تيسر إتيان فرعون وخروجه من قصره إلى ساحة الجمع والنزال، لكن العجيب في النظم أنه عبر عن إتيان فرعون في هذا المقام بـ "ثم" الدالة على التراخي الزمني خلافا للمتوقع فقال: "ثُمَّ أَتَى" وهذا يستدعي التوقف مليا بالتدبر والتأمل البياني في تحليل ذلك وفهم إشارات الإعجازية في السياق.

وما تبرزه أيضا حروف المعاني من إثارة تساؤلات تدبرية للفهم والإدراك من تغاير ورودها في الاستعمال القرآني بين سياقين متشابهين من نظم القرآن بحرفين مختلفين؛ كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ الرعد: ٢

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ فاطر: ١٣



وقوله تعالى: ﴿خَالَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾ الزمر: ٥
وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ يَمَآعَمَلُونَ خَيْرٌ﴾ لقمان: ٢٩

فإننا نندهش لاستعمال البيان القرآني في مواضعه الثلاثة من سور فاطر والزمر ولقمان، لحرف اللام "(يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)" في وصف حركة الشمس والقمر على هذا النحو العجيب! ويغابر في الاستعمال؛ فيرد حرف الجر "إلى" في موضع وحيد من سورة لقمان في قوله تعالى: (يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)

ولا نجد في كلام بعض المتقدمين من اللغويين والمفسرين ما يكشف عن الدقة البيانية في هذا السياق وملح الإعجاز فيه؛ إذ نجدهم يعللون ذلك بقياس النظير على النظير ويلجؤون إلى التأويل، فيرون أن "إلى" وردت بمعنى اللام هنا قياساً على نظيرها السابق في الآيات، فهما بمعنى واحد؛ وهذا التأويل يحجب الملح الإعجازي الدقيق، الذي يجمع بين الدقة البيانية والإشارات العلمية، كما سأوضحه في البحث بالأدلة والبراهين.

ويبرز التجديد في تناول هذا الموضوع أيضاً من خلال تحليل بعض موارد الاستعمال القرآني لحروف المعاني، في سياقات يكشف فيها الإعجاز البياني عن ملحظ نفسي؛ لأن البيان هو الكاشف عن خطرات النفوس وخفاياها، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَسْحَرِ بُرُوءٌ ﴿٢٤﴾﴾ المدثر: ١٨ - ٢٤ فإنه من المدهش حقاً، أن يتتابع حرف العطف "ثم" أربع مرات، على نسق واحد من التعبير "ثُمَّ قَتَلَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ، ثُمَّ أَدْبَرَ"، ثم خرج النسق القرآني عن المتوقع في الاطراد، إلى حرف الفاء؛ إذ قال: "﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَسْحَرِ بُرُوءٌ ﴿٢٤﴾﴾ المدثر، ولم يرد كما كان متوقعا "ثم قال..."

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ النجم: ٣، فقد ورد الفعل ينطق مقترنا بحرف الباء (ينطق بالحق)، و(ينطق عليكم بالحق)، وذلك في حق الكتاب، فلما وصف منطق الرسول - صلى الله عليه وسلم؛ خالف في التعبير بالحرف فقرن الفعل (ينطق) ب "عن" فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ النجم: ٣، وغاية ما فعله اللغويون هنا أن جعلوا (عن) تنوب مناب الباء، وسووا بينهما في الدلالة والاستعمال، في هذا المقام! والصواب أن كل حرف؛ له خصوصيته في

الاستعمال، وقد عمدت في بحثي هذا إلى الكشف عن هذا الملحظ الإعجازي في دقة الاستعمال في هذا المقام.

ومن المثير للدهشة ما يستوقفنا فيه البيان القرآني بدقة استعماله العجيبة لحروف المعاني في الإشارة إلى ملمح من الإعجاز الغيبي والتاريخي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٦١) آل عمران: ٤٦

فإن كلامه في المهد هو موضع العجب والذكر! وأما كلامه كهلاً فهو في مستقبل الزمان وهو غيب محض، لكن البيان القرآني المعجز عطف بينهما بالواو، وفي هذا العطف ملمح إعجازي، لم يتطرق إليه كثير من اللغويين في دلالات هذا الحرف، وإنما هو من مبتكرات القرآن.

التمهيد وفيه مطلبان: أولاً: حروف المعاني، الأهمية والدلالة.

تمثل حروف المعاني أهمية بالغة في اللسان العربي، فهي ترتبط التراكيب بعضها ببعض، وتضفي عليها معاني في الاستعمال، لا يمكن فهم البيان من دون فهم استعمالاتها في السياق، فلها وظيفة تركيبية وإعرابية، وهي تختلف عن حروف المباني، التي تتركب منها بنية الكلمة، التي هي حروف الهجاء، وليس لها معنى.

فالهزة مثلاً في كلمة "أحمد"، حرف مبني يدخل في بنية الكلمة ولا معنى له، في حين أن الهزة في قولنا: أسافر علي؟ هي من حروف المعاني تدل على الاستفهام.

وقد تناول العلماء قديماً حروف المعاني في كتب النحو، وشرحوا دورها ووظيفتها في التركيب، وأثرها النحوي في الإعراب ودلالاتها في السياق، ومنهم من أفرد لها في التأليف لأهميتها، كرصف المباني في شرح حروف المعاني لأحمد بن عبدالنور المالقي ت 702 هـ، والجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت 749 هـ)، وعد علماء اللغة حروف المعاني هي القسم الثالث من أقسام الكلمة في العربية⁽¹⁾، وذلك أنهم عدوا الكلمة التي ترد دالة على معنى في نفسها دون اقترانها بزمن اسماً، فميزوها بذلك عن الكلمة التي ترد دالة على معنى في نفسها مع اقترانها بالزمن، وهي الفعل، نحو: جاء وحضر، ففيها دلالة الحدث من مجيء وحضور مقترنا بزمن الماضي في ذلك.

وعليه فقد جعلوا حروف المعاني، هي كلمة دالة على المعنى في غيرها لا في نفسها، نحو: على والباء والواو وثم وهكذا، وهي حروف دوال على معنى في غيرها، وليس لها دلالة مستقلة بنفسها خارج السياق.

فوظيفتها الربط بين أجزاء الجملة، وهو المعنى الذي يقصده النحويون من حروف المعاني، إذ يرى الزمخشري "أن الحرف ما دل على معنى في غيره، ومن ثم لم ينفك من اسم أو



فعل يصحبه" (2) والملاحظ أن الزمخشري أدرك معنى التعليق الذي يؤديه الحرف في الربط بين الأجزاء المختلفة من الجملة.

ثانياً: مفهوم الإعجاز البياني: المراد بالإعجاز البياني هو الدقة في اختيار كلمات القرآن الكريم، وترتيبها بصور بديعة، بحيث تظهر الفصاحة والبلاغة والبيان بصورة يفهما القارئ، ويسهب في تدبرها.

فالدقة في الاختيار للحرف من حروف المعاني في السياق القرآني الوارد فيه ذلك الحرف، بحيث لا يمكن أن يحل محل هذا الحرف ولا يسد مسده حرف آخر؛ للدلالة على المعنى المقصود من إيراد؛ ذلك هو مظهر من مظاهر إعجازه، الذي يدهش المتدبرين لكتاب الله - عز وجل - وأنه لا يمكن أن يكون ذلك من كلام بشر مطلقاً، فهو فوق طاقات البشر البيانية، لدى البلغاء والفصحاء وأرباب البيان، وأن ذلك من دلائل مصدرية ربانية هذا القرآن.

وقد مرت دراسات الإعجاز البياني بمراحل مختلفة، ابتداء من بدايات القرن الرابع في رسائل الإعجاز لدى الرماني والخطابي والباقلاني، واتسعت لدى عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ونظرية النظم التي بينها في كتابه، ووظفها الزمخشري في تفسيره الكشاف، وتأثر به من جاء بعده من المفسرين، وتنجرت دراسات البلاغة وعلومها منذ السكاكي في مفتاح العلوم وتلخيصه لدى القزويني، وشروحه حتى اتسعت في الدراسات البيانية الحديثة لدى مصطفى الرافعي ومحمد عبد الله دراز وبنت الشاطئ وسيد قطب في نظرية التصوير الفني والظلال، و تفسير التحرير والتنوير عند ابن عاشور.

ولا يزال البحث في مجال الإعجاز البياني متسعاً وممتداً عبر العصور؛ لأن كتاب المعجز بيانه متجدد في معانيه ومرامييه، فلا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء، ولا يقف إعجازه أو ينتهي عند عصر من العصور، بل تتسع معانيه باتساع الأفهام واختلافها وتنوعها، واتساع مشاربها العلمية والمعرفية.

ويقوم الإعجاز البياني في معظمه وأصله على الذوق البياني العقلي لدى علماء البلاغة والبيان؛ لذلك تتسع فيه الأفهام.

ونظراً لا تساع استعمال هذه الحروف وكثرتها، فقد اقتصر البحث على نماذج مختارة من حروف العطف وحروف الجر، في آيات متعددة من القرآن الكريم بالتحليل والتعليل؛ وذلك لأنها أكثر استعمالاً ودلالة في النظم القرآني.

المبحث الأول: حروف العطف ومظاهر الإعجاز البياني في دقة استعمالها.

العطف في النحو هو اتباع لفظ لسابقه، أو جملة لسابقتها بأحد أحرف العطف، وحروف العطف تسعة: ستة منها تفيد المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم والإعراب معاً وهي: (الواو) و(الفاء) و(ثم) و(حتى) و(أو) و(أم)، والثلاثة الباقية تعطي المعطوف حركة وهي: (الواو) و(الفاء) و(ثم)، التي تعد رئيسة في بابها ولكونها الأكثر وروداً في القرآن الكريم

الواو: حرف معنى للربط بين مكونات الكلام، تختلف وظائفها ودلالاتها ومعانيها باختلاف سياقها إذا كان معناها الجمع والتشريك بين سابقها ولحقها من الكلام. وهي أصل حروف العطف لكثرة استعمالها ودورها فيه، ومعناها الجمع والتشريك، وهي تعطف مفرداً على مفرد، وجملة على جملة، وتدل على مطلق الجمع".

الفاء: العاطفة تعطف اسماً على اسم أو فعلاً على فعل، أو جملة على جملة، وتفيد اشتراك المعطوف مع المعطوف عليه في الحكم والترتيب بغير مهلة، نحو قولك رأيت زيداً فعمراً، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نُهُ فَآقْبَرُهُ﴾ (٢١) عبس: ٢١

فهي مرتبة تدل على أنَّ الثاني بعد الأول والتعقيب، أي: عدم وجود مهلة بين المعطوف والمعطوف عليه، ولتعري الفاء من التراخي وقعت في جواب الشرط، ثم: وظيفتها الأساسية هي العطف وتفيد التشريك في الحكم والترتيب مع التراخي (3).

وهذه الدلالات هي الغالب المعلوم من استعمال حروف العطف المشهورة (الواو والفاء و(ثم) ولكن قد ترد في السياق القرآني المعجز خارجة عن الظاهر في الاستعمال، وذلك لمقصد دلالي إعجازي يفهم من همس السياق وعمق التدبر والفهم.

ومن مظاهر الإعجاز في استعمال البيان القرآني لهذه الأحرف على نحو محكم ودقيق، ما يستوقفنا في قوله تعالى: ﴿وَيُكَذِّبُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٦) آل عمران: ٤٦

فقد وردت الواو في نظم الآية على نحو لافت للتأمل والتدبر البياني العميق، ذلك أنَّ كلامه في المهد هو محل الدهشة والمعجزة، وأما حديثه في الكهولة، فهو أمر غير مستغرب من عموم الناس، فما سر العطف بالواو في هذا المقام؟

فكأنَّ الواو هنا تفصح عن ملمحين إعجازيين بياني وغيبى معاً؛ فأما البياني فملمح دلالة التسوية في الواو، إذ تشير إلى أنَّ كلامه في المهد ككلامه في الكهولة، ناطق بالحكمة سواء بسواء، وهو ما حصل فكان إذ نطق بالحكمة في مهده فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ



وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ مريم: ٣٠ - ٣٣

وهذا الكلام هو كلام حكمة صدر منه في كهولته أيضاً، كما صدر في مهده حقاً؛ إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُواهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ آل عمران: ٥١

وأما ملمح الإعجاز الغيبي؛ فقد كشفت الواو في هذا المقام عن حجب غيب المستقبل؛ بأن المتكلم في المهد سيبلغ مبلغ الكهولة دون أن يمسه أذى من قتل ونحوه؛ فالمتوقع في حالة ولادته من أم دون أب، وهي حالة غريبة في واقع الناس، أن يكون عرضة للقتل والهلاك، فسلمه الله وحماه.

ولا شك أن المولى سبحانه قد نقل حديث عيسى وقومه ترجمةً للغتهم باللسان العربي المبين، وهنا مكمّن الإعجاز في بيان القرآن، في نقل ذلك والتعبير عنه بهذا اللسان، على هذا النحو من الدقة والإحكام.

ونجد أيضاً ملمح الإعجاز البياني يكشف عن إعجاز غيبي يمتد عبر العصور والأزمان في استعمال الواو من قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ الروم: ٢٣

فإنه يقع تساؤل عن سر مجيء الواو العاطفة في قوله: (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وأنه كان المتوقع الاستغناء عنها، فيرد النظم على تقدير: ومن آياته منامكم بالليل وابتغائكم بالنهار من فضله؛ وهو ما ذهب إليه الزمخشري من المفسرين^(٤)، وتقدير النظم لديه: ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار، فيعود ذكر الليل على منامكم، والنهار على ابتغائكم، على طريقة اللف والنشر المرتب عند البلاغيين، ودل على رأيه هذا بالقياس على النظم لهذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ القصص: ٧٣

إذ جاءت الآية على طريقة اللف والنشر المرتب، أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله بالنهار.

ولكننا نجد أن همس الحروف في نظم الآية وإحكام النظم يشير إلى أن آية الروم تختلف عن آية القصص في نظمها ودلالاتها، فالحديث في آية القصص عن السكن، لتسكنوا فيه، وعد ذلك سبحانه من رحمته بالخلق أن يسكنوا في الليل من الحركة إلى الهدوء، وهذه الآية تصف الغالب في واقع الناس ومعاشهم.

إذ الليل بظلمته يقطع الحركة، ويسوده الهدوء، ولكن آية الروم يرد فيها الحديث عن آية الله في النوم، وهو سلطان قاهر، لا يستطيع أحد دفعه عند حصوله في الليل أو النهار، فهو أدل على القدرة والآية في هذا السياق، وتوسط المتعاطفين (الليل والنهار) بين النوم والابتغاء من فضل الله، مقصود لدلالة الاتساع بحملهما على السابق واللاحق، أي: منامكم بالليل والنهار، وابتغائكم من فضله فيهما، فأفصحت الآية بدقائق نظمها، على أن الليل والنهار ظرفان للنوم وابتغاء الرزق، والقرآن خطاب للزمن عبر عصوره الممتدة إلى قيام الساعة، وكأن في ذلك ملمحا إعجازيا كشف حجب الغيب؛ بأنه سيصبح الليل كالنهار في تجاوز الظلمة بوسائل الإضاءة كما هو حاصل الآن بالكهرباء، التي يسرت فيه حركة العيش والطلب والابتغاء، وهذا ما هو حاصل وواقع في حياة كثير من الناس على هذه الأرض، فدلّت الواو العاطفة في نظم الآية على جمع الزمنين الليل والنهار للنوم والابتغاء، وأن ذلك من كمال قدرته وآياته سبحانه!

ومن بديع إشارات الإعجاز النفسي، ما نلمحه في حديث القرآن عن بني إسرائيل وترددهم في ذبح البقرة، إذ قال: ﴿قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧١) فإن الدهشة البيانية في النظم في مجيء الفاء على غير المتوقع من السياق، إذ قوله: وما كادوا يفعلون، يشير إلى نفي مقارنة الفعل، وترددهم في ذبحها، وكان مقتضى ظاهر السياق أن ترد "ثم"، فيكون النظم على نحو: ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون، فما سر استعمال الفاء التي هي في أصل معناها التعقيب والمسارة في الأداء؟

وما ذلك - والله أعلم - إلا كشفا عن نفسياتهم التي لم تبادر الفعل مسارعة وامتنالا، وإنما إلباء واضطرابا، بعد أن حُوصروا بالحق البين من أوصاف البقرة، التي تحدت شكلا ووصفا؛ مما لا مناص لأنفسهم الخبيثة إلا الإذعان اضطرابا لوضوح الحق، لا مسارعة لامتناله (5)، فكانت هذه الفاء إلباء واضطرابا، لا فاء المسارعة والامتنال، ولو حلت محلها "ثم" لما افصحت عن قوة الحق الذي ألجأهم والبرهان! وهذا ما يعجز عن مجاراته فرسان الكلام؛ لدقة نظمه؛ في الكشف عن خبايا النفوس وخلجاتها، بهمس البيان!

ونلاحظ الدقة في مجيء الفاء وحذفها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠) جاءت (الفاء) في قوله: "فلهم عذاب جهنم"، وحذفت من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١١) (لهم جنات) وذلك لأن سياق المقام يقتضي تأكيد الآية الأولى، وذلك أنها جاءت تعقيباً على الذين فتنوا المؤمنين عن دينهم، وجعلوهم في الأخاديد، وأضرموا عليهم النار: ﴿فُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿١٠﴾ النَّارِ ذَاتِ



أَلَوْفُودٌ ﴿٦٠﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦١﴾ ﴿ البروج: ٤ - ٦ ﴾ (٦). ومجيء (الفاء) السببية هنا، فيها إشارة أيضاً إلى استحقاقهم العذاب بسبب فتنتهم للمؤمنين.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ الأعراف: ٣٦ وقد عُلِّ حذف (الفاء) في آية الأعراف بأنه من قبيل التسامح في الوعيد، كما عللها البيضاوي^(٧)، وجاء ذكرها في آية البروج؛ لأن سياق آية البروج فيه تهديد بالوعيد والعذاب أكثر من سابقه، فهؤلاء الذين فتنوا المؤمنين قد تحقق في حقهم العذاب بقوله: "ثم لم يتوبوا فلهم" أما النوع الأول من الكافرين في آية الأعراف فهو في عموم المكذبين، وقد يرجى منهم التوبة، فلم تقتزن (الفاء) الدالة على استحقاق العذاب، وثبوتها في حقهم، فكان التسامح من هذا القبيل.

وأما العدول إلى حذفها في حق المؤمنين بقوله (لهم جنات تجري)، فللدلالة على أن دخول الجنة بمحض التفضل من المولى عز وجل، وليست مستحقة وجوباً بعملهم الصالح، كارتباط العلة بالمعلول، بدليل حديث رسول الله ﷺ القائل: "لن يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة"^(٨)، فحذف (الفاء) من ذكر أهل الجنة وذكرها مع أهل العذاب؛ للدلالة على أن عذابه لهم بموجب عدله، إذ استحقوا ذلك بموجب سوء الأعمال، وإدخاله -عز وجل- المؤمنين الجنة بموجب رحمته وفضله.

ومن مظاهر الإعجاز في اجتماع الحرفين معا "الفاء وثُمَّ" في نظم القرآن ما جاء في وصف الوليد بن المغيرة من رؤوس الجاهلية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَرَّ وَقَدَّرَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ المدثر: ١٨ - ٢٤

فإن الملاحظ تكرار ثَمَّ (ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) وفي ذلك دلالة على التراخي الزمني والمهلة في التفكير وإجالة النظر في هذا القرآن، فأعوزته الحيلة في أن يجد ما يعيب به القرآن، أو يصفه به، ثم خالف النظم الحكيم في استعمال الحرفين، فانقل إلى الفاء الدالة على التعقيب دون مهلة ولا إعمال فكر، لمقولته الكاذبة الجائرة التي وصف بها الوليد القرآن، كأنه قالها على عجل مدبراً مستكبراً إذ قال: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ المدثر: ٢٤ - ٢٥ فكانت الفاء كاشفة بدقة عن نفسية الوليد وهزيمته النفسية أمام القرآن، حتى قال في عجل ما قال.

وترد المخالفة في استعمال حرفي العطف الفاء وثم في مظهر إعجازي كاشف عن الدلالة النفسية في قوله تعالى متحدثا عن فرعون ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ٥٧ ﴾ فَلَتَاتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ٥٨ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ٥٩ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُبْحَى ٦٠ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ٦١ ﴿ طه: ٥٧ - ٦٠

فإن مقتضى الظاهر وفق دلالات اللسان العربي في الاستعمال، أن تتصل ثم مع الجمع؛ لأنه يحتاج إلى مهلة وتراخ في الزمن لبعث الرسل بإعلام الناس لموعد ملاقاته السحرة مع موسى، وهو ما حكاه القرآن في مواضع بقوله: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ الأعراف: ١١١ ، ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُعْثِرْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ الشعراء: ٣٦ ، وهذا يحتاج زمناً أطول، وأما الإتيان بعد الجمع لمقابلة موسى عليه السلام، فزمنه اقصر وأقل، يناسبه مجيء الفاء، فيرد النظم على نحو: فتولى فرعون ثم جمع كيده فأتى، لكن النظم القرآني المحكم؛ خالف في استعمال الحرفين في هذا المقام؛ لدلالة نفسية؛ فمع أن فرعون قد تيسر له الجمع بالترهيب أو الترغيب لكونه صاحب السطوة والنفوذ والملك؛ فناسب ذلك استعمال البيان المعجز حرف الفاء؛ للدلالة على تيسر الجمع وسهولته، لكنه مع تيسر ذلك له ظل مترددا متخوفا من ملاقاته موسى، يعيش في داخله الهزيمة النفسية من الخروج والإتيان من قصره إلى ساحة الجمع، وهو ما كشف عنه البيان الإلهي المعجز باستعمال حرف التراخي الزمني "ثم" في الإتيان، فقال: "ثُمَّ أَتَى" وهذا من همس الحروف، وما تشي به دلالة النظم والسياق في هذا المقام العجيب!

وفي موضع آخر نقف على آية من آيات الإعجاز يتحدث فيها المولى عز وجل عن أطوار خلق الإنسان، فيكشف فيها الأداء البياني الدقيق عن ملمح علمي عميق، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فِتْبَارِكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤ ﴾ المؤمنون: ١٢ - ١٤

فهذه الآيات القرآنية تتحدث عن أطوار خلق الإنسان، لكنها عبرت ابتداء عن بعض هذه الأطوار بـ (ثم)، ثم عدلت عند الحديث عن طور المضغة، وما بعده إلى حرف عطف (الفاء)، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (ثم) في هذا السياق قد أفادت معنى الاستبعاد، أي: "أنها توحى بدلالة التفاوت والتباين بين هذه الأطوار. فبعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بـ (ثم)، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء



ترابية غريب جداً، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة (9).

قال فضل عباس -رحمه الله-: "نحن نرى أن هناك أطواراً لم يستعمل القرآن فيها إلا حرف التراخي "ثم"، وهذه الأطوار طور التحول من سلاله الطين إلى نطفة، وطور التحول من النطفة إلى العلقه، وأمر (ثم) ظاهر في هذين الطورين؛ لأنهما مختلفان من حيث الطبيعة والخاصية والعنصر، فشتان ما بين التراب (السلالة من طين)، وبين النطفة (الحيوان)، أما النطفة والعلقه فربما يظن أنهما شيء واحد أو قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما بوناً وفاقاً، إذ النطفة من خصائص أحد المتزاوجين وهو الذكر. وأما العلقه فلن تكون كذلك إلا إذا اشتركا فيها جميعاً" (10).

وأما التحول من علقه إلى مضغة، فالعلقه فيه أصل للمضغة تحولت عنها وتطورت، وليس بينهما تباين أو اختلاف كبير في الخصائص والتركيب كما هو الحال في الأطوار السابقة؛ لذا حسن مجيء (الفاء) هنا. فقال: "فخلقنا العلقه مضغة".

ولكن يستوقفنا في هذا المقام سياق سورة الحج في قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ الحج: ٥

فقد عطف بين هذين الطورين بـ (ثم) فقال: "ثم من علقه ثم من مضغة"، وقد علل فضل عباس ذلك فقال: "وأما استعمال الفاء فلأن الطورين ليس بينهما فرق من حيث العنصر والخصائص، وأما استعمال (ثم) في آية الحج؛ فلأنها جاءت في سياق البعث الذي هو أدل على القدرة الإلهية، فالمقام مقام تفصيل" (11).

ومع هذه اللفته البيانية التربوية نلمح اللفته العلمية المدهشة: "لمن يسأل، لماذا قال الله - تعالى- في الآية الكريمة: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المؤمنون: ١٤ ثم في هذه الآية الكريمة: (ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ)، فالجواب بأن الله تعالى هنا بين أدوار النشأة بتسلسل متبوع من تراب، ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة، ليبين الأطوار التي يمر بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار، والعلقه لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار، أما في الآية الكريمة السابقة فقد أرانا الله نصيب كل دور، ووقت كل طور فجاء بالعطف بـ (الفاء) ليبين قصر الدور، وبالعطف بـ (ثم) ليبين التعقيب مع التراخي؛ أي: طول هذا الطور

فالعطف بـ (الفاء) في قوله تعالى: "فخلقنا العلقه مضغة" جاء لتوضيح قصر فترة هذا الطور مقارنة بغيره من الأطوار المذكورة سابقاً، وفي سياق ذكر (ثم) كان التركيز على طول هذا

الطور في نفسه هو، فهو يمر بأدوار ومراحل في نفسه، لكنه مع ذلك قصير بالنسبة للأطوار السابقة له.

واختصت سورة الحج بورود العطف فيها بـ (ثم) خلافاً لسورة (المؤمنون)، ولم يرد العكس "لأن المخاطب في آية الحج منكر فيها للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فاستدعى مقام الإنكار تعديد الأطوار، وإبراز مراحل الطور الواحد في صورة أدوار متعددة، باعد بينها حرف التراخي؛ ليظهر عظيم قدرة الله في أن يخلق الشيء من أبعد ما يكون عنه مادة وجنساً" (12).

المبحث الثاني: حروف الجر ودقة استعمال القرآن الكريم لها.

حروف الجر نوع من أنواع حروف المعاني، وظيفتها وصل ما قبلها بما بعدها، فتوصل الاسم بالاسم، والفعل بالاسم، الكتاب لمحمد، ومررت به، وقد تكاثرت عبارات النحويين وتقاربت في بيان الوظيفة العامة لحروف الجر، وخلصتها: إيصال معاني الأفعال إلى الأسماء. وهي كثيرة، أشهرها استعمالاً: مِنْ، إِلَى، عَنْ، عَلَى، فِي، الْبَاء، اللَّام، الْكَاف.

ونجد في موضوع حروف الجر حديثاً كثيراً لدى علماء اللغة من الزعم بتناوب حروف الجر بعضها عن بعض، وبعضهم يرفض القول بالتناوب ويذهب للتحقيق وتلمس معاني الحروف من خلال السياق (13)، وهو الذي نميل إليه، ونجد دقائق نظم القرآن في استعمال حروف الجر مما يدهش له العقل البشري في تدبر دقة الاختيار للحرف في موقعه، المناسب لمقتضى سياق المقام استعمالاً مناسباً، ولا يمكن فيه أن يحل حرف محل حرف؛ ليؤدي المعنى المقصود بهذا الاستعمال.

وسأقتصر هنا على نماذج مختارة من حروف الجر، واستعمال البيان القرآني لها بدقة إعجازية فريدة، من ذلك ما نجده في استعمال النظم القرآني المعجز حرفين مختلفين في سياقين متشابهين من متشابه النظم، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ الرعد: ٢

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ فاطر: ١٣

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٥﴾ الزمر: ٥



وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لقمان: 29

فإن الملاحظ في تدبرنا للآيات السابقة، مجيء الآيات الثلاث في الرعد وفاطر والزمر مجيء اللام في قوله تعالى: (يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) وعدل إلى حرف الجر "إلى" في الآية الرابعة، في قوله تعالى من سورة لقمان: (يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) وقد حاول بعض المفسرين⁽¹⁴⁾، تحليل ذلك من أقصر طريق دون تحقيق، وهو القول بالتناوب، أي: أن حرف الجر اللام ناب مناب إلى في الاستعمال وجاء بمعناه وأن قوله كل يجري لأجل مسمى هو بمعنى كل يجري إلى أجل مسمى؛ قياساً على الشبيه والنظير من نظم القرآن.

والذي يبدو أن البيان القرآني يختار مفرداته بدقة في سياقاته المختلفة، وأن القول بإنابة حرف معنى حرف في النظم المعجز، ضرب من الاستعجال في النظر البياني والتحقيق، وذلك أننا نجد آيات الثلاث الواردة في الرعد وفاطر والزمر، التي ورد فيها قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) إخبار عن الشمس والقمر أن كلا منهما يجري لغاية مقصودة ومسماة له من الخالق؛ ليحققها من حركته الدؤوبة المستمرة لإمداد الأرض بالنور والحياة.

فاللام على أصل معناها في هذا السياق دالة على العلة والاختصاص، وأن ما ورد في سورة لقمان من قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قد اقترن بحرف الجر "إلى" الذي يفيد معنى انتهاء الغاية من جريانهما ووصولهما إلى نهاية عمرهما في هذا الكون.

فدل السياقان في مشتبه النظم البياني المعجز على ملمح بياني دقيق في دقة الاختيار وعلى ملمح إعجازي علمي، إلى أن للشمس والقمر وظيفة وغاية يجريان لبلوغها، ولهما نهاية أجل ينتهي عندها وجودهما، فجمع في الدلالة على ذلك بتنوع الحرفين اللام وإلى.

ويبقى سر اختيار كل حرف لسياق سوره التي ورد فيها، وذلك أن ما ورد في الرعد وفاطر والزمر، جاء في سياق ذكر الخلق والإيجاد والحياة وبروز القدرة الربانية في الخلق، ففي سورة الرعد ورد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ الرعد: ٢-٣

وكذلك ما ورد في سورة فاطر على الترتيب، كان في سياق الخلق والإيجاد، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ

تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴿١٢ - ١٣﴾ فاطر:

وكذلك سياق سورة الزمر، وردت الآية فيها في سياق الخلق والإيجاد في قوله تعالى:
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿٣١﴾ الزمر: ٥
أما سياق سورة لقمان؛ فقد ورد بعد الآية الواردة فيه آيات تتحدث عن نهاية الخلق والقيامة
والبعث؛ فناسب ذلك مقتضى المقام، في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا
لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿٣٣ - ٣٤﴾ لقمان:

فالسِّياق في سورة لقمان يشير لانتهاى الخلق والبعث، ناسبه ذكر انتهاء جريان الشمس
والقمر إلى أجل مسمى، وهذا من بديع المناسبة في النظم القرآني، ومن لطيف إشارات الإعجاز.
وفي موضع آخر نجد المغايرة في استعمال حرف الجر أيضاً، مظهراً بارزاً، ومعلماً
واضحاً من معالم الإعجاز، في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٢﴾﴾ ﴿٦٢﴾ المؤمنون:

وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾
﴿٢٩﴾ الجاثية: 29 ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣١﴾﴾ ﴿٣١﴾ النجم: ٣
فالمتدبر لدقائق البيان القرآني في الآيات السابقة؛ يجد ما يدهش المتدبر في المغايرة بين
حرفي الجر الباء وعن، وتعلقهما بالفعل ينطق "ينطق بالحق" و"ما ينطق عن الهوى".
ونجد عالماً لغوياً كبيراً هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، يسوي في الاستعمال بينهما،
فيذهب إلى أن "عن" بمعنى الباء أي: "وما ينطق عن الهوى، أي: بالهوى (15)".



فأبو عبيدة يرى القول بالتناوب في حرفي الجر هنا، وأن معناهما واحد، وهذا بعد عن التدبر والنظر البياني العميق؛ لأن البيان الإلهي دقيق في اختيار الحرف في موقعه المناسب للدلالة المقصودة في هذا السياق.

ويرى الباحث أن استعمال القرآن للحرف " عن " دون الباء هو غاية الدقة والإحكام، إذ نفى المولى عز وجل عن نبيه أن يكون قوله صادراً عن هوى، في قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ النجم: ٣

لأن " عن " تفيد المجاوزة في أصل معناها، ويكون المعنى بذلك أبلغ وأسد؛ لأنه يكون قد نزه مقصد منطقته أن يكون صادراً في خفايا نفسه ووجدانه عن هوى مستور، وفي هذا ملمح نفسي دقيق وعميق، فإذا نزه مقصده عن الهوى، فقد نزه منطقته من باب أولى، ولا يعلم بخفايا النفوس إلا الخالق جلّ وعلا، وهذا شاهد بياني نفسي من شواهد إعجاز هذا البيان الحكيم.

الخاتمة وأهم النتائج

وختاماً نصل في هذا البحث إلى نتائج أهمها:

- أن البيان القرآني استعمل حروف المعاني استعمالاً محكماً ودقيقاً؛ يمثل مظهراً بارزاً من مظاهر الإعجاز البياني فيه.
- أن ما زعمه بعض العلماء اللغويين والمفسرين من القول بإنابة حرف محل حرف في معناه؛ ياباه النظم القرآني، ولا يقوم على تحقيق، ويتعارض مع الدقة والإحكام.
- السياق القرآني كاشف عن دقائق استعمال الألفاظ في موضعها من النظم القرآني.
- الإعجاز البياني هو الوسيلة الكاشفة عن وجوه الإعجاز الأخرى، من إعجاز علمي أو نفسي أو غيبي، وعلى أساتذة الإعجاز ورواده، معرفة دقائق أسرار اللغة القرآنية؛ لفهم وجوه الإعجاز المختلفة.
- كشف استعمال البياني القرآني لحروف المعاني عن إشارات نفسية، تهمس بها الحروف بين السياق، وبرزت بعض الإشارات العلمية في الإعجاز.
- يوصي الباحث المراكز البحثية والمؤتمرات العلمية والباحثين بالانتساع في دراسات الإعجاز بكل مظاهره وأشكاله، انطلاقاً من فهم حروف المعاني التي تربط التراكيب في الآية القرآنية ربطاً محكماً وعجيباً، وماتزال هذه الدراسات - من وجهة نظري - تحتاج كثيراً من التحقيق لكل ما ذكرته كتب التفسير وكتب اللغة؛ للكشف عما تخبئه تلك الحروف من دلالات عميقة تنطوي عليها، من خلال فهم السياق فهماً دقيقاً.

المصادر والهوامش:

- (1) - ينظر: معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الدوحة، 2018، 6/3
- (2) - المفصل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، مكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣، ص 283
- (3) - ينظر: معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، 3/ 278
- (4) - ينظر: الكشاف، أبو القاسم محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، 3، 473
- (5) - ينظر: الإعجاز في نسق القرآن، محمد الأمين الخضري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002، 230
- (6) - معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، 4/ 129.
- (7) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد البضاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، 12/3
- (8) - صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
- (9) - الإعجاز البياني في العدول النحوي، عبد الله الهتاري، دار كلیم، القاهرة، 2022، 167.
- (10) - المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، فضل حسن عباس، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، م11، ع4، 1984،
- (11) - المرجع السابق نفسه.
- (12) - بين الطب والإسلام، حامد الغوايبي، دار الكتب للطباعة، القاهرة، 1967م، 26.
- (13) - ينظر للاستزادة: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو 3/ 7
- (14) - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨ هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ، 564/2
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 340/4
- (15) - مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 236. /2